الفصل الحادى عشر

الفصل الحادى عشر

الفصل العاشر

فى القيم الإسلامية

ليس هذا مقام الدراسة المستفيضة فى مبحث "القيم" – من وجهة النظر الإسلامية.. فتلك قضية كبرى، لعل الوفاء بحقها مما يخرج عن حيز وطبيعة هذا المقام.

وإذا كانت القضية هامة.. والمقام لا يتحمل الإفاضة والتفضيل.. فإن الذى نتطلع إليه، والذى تطمح إليه هذه الكلمات هى أن تكون:

* نقاطا.. ومحاور.. تأخذ شكل رؤوس الأقلام.. لعلها أن تجد القبول فتأخذ مكان الإضافات التى تثير الإبداع فى التفضيلات..

****

١- وألوى النقاط – بل علامات الاستفهام – التى تحتاج إلى بحث وإجابة.. هى:

لماذا تميزت "القيم" بمباحث خاصة فى فلسفات الحضارة الغربية؟.. ولم تتميز بمبحث خاص فى فلسفة الإسلام؟؟..

لقد ميزت كل تيارات الفلسفة الغربية – منذ جاهليتها اليونانية، وحتى نهضتها الحديثة – ميزت مبحث القيم عن غيره من مباحث تلك الفلسفة..

ورأينا اختلاف مذاهب تلك الفلسفة حول:

- ثبات القيم وخلودها؟.. أم تغيرها وتحولها بتغير وتحول الظروف والملابسات؟؟..
- وكمونها كموناً ذاتيا فى طبيعة الأقوال (قيم المعرفة).. والأفعال (قيم الأخلاق).. والأشياء (قيم الفنون)..؟

  أم أنها صفات ذهنية يخلعها العقل على الأقوال.. والأفعال.. والأشياء، طبقاً للظروف والملابسات.. وبالتالى فهى تختلف باختلاف من يصدر الحكم؟؟..
- وكونها موضوعية.. تمثل غايات ومقاصد؟؟.. أم أنها ذاتية.. شخصية الطابع.. ومجرد وسائل إلى تحقيق المقاصد والغايات..
- كذلك اختلفت مذاهب الفلسفة الغربية حول لمرجعية التى ترجع إليها القيم.. والمعايير التى تقاس بها..

.. فالأفلاطونيون جعلوا مرجعيتها: فى مقدار محاكاتها للعالم العلوى.. عالم المثل!.

.. والمشاءون جعلوا مرجعيتها فى مقدار ما تحققه من التطابق بين الإرادة والعقل..

.. والرواقيون جعلوا مرجعيتها: فى مقدار موافقتها للطبيعة.

.. والأبيقوريون جعلوا مرجعيتها: فى مقياس اللذة التى تحققها، ومقدارها!..

على هذا النحو – الذى أشرنا إليه – أفردت الفلسفة الغربية للقيم مباحث مستقلة.. واختلفت عليها وفيها مذاهب تلك الفلسفة وتياراتها..

وهذا هو الأمر الذى غاب عن مباحث فلسفة الإسلام..

فلماذا؟؟..

لا أعتقد أن نقصا أو إهمالاً أو تقليلاً من شأن "القيم" قد كان السبب فى ذلك الغياب.. بل على العكس من ذلك.. فالقيم، أى المعايير الثابتة الخالدة، التى تمثل موازين صلاح الأقوال.. والأفعال.. والأشياء.. موازين العقائد، الشرائع، والسلوك.. هذه القيم، هى – فى النظرة الإسلامية – بمثابة الروح السارية فى كل شىء.. والحاكمة لكل شىء.. والتى يقاس بها صلاح أى شىء.. فهى بديهة لا خلاف عليها.. وروح سارية لا سبيل إلى إنكارها.. ومن أراد تلمسها فى الأنساق الفكرية الإسلامية، فعليه النظر فى كل أبواب علوم وفنون تلك الأنساق.. وليس فى مبحث خاص من مباحث فلسفة الإسلام!..

ولذلك.. لا مجال للغرابة والاستغراب، إذا نحن وجدنا "القيمة" وهى مفرد "القيم" – تعريفات فى مباحث الاقتصاد الإسلامى – فى "الثمن": ما يدخل تحت تقويم مقوم.. والقيمى – فى مبحث الإجارة – هو غير المثلى.. بينما لا نجد لهذا المصطلح تعريفات ومباحث فى كتب الفلسفة الإسلامية!..

وفى الحديث النبوى الشريف – وله، فى علم العربية، المرجعية التالية للقرآن، والسابقة للشعر – فى هذا الحديث نطالع سؤال الصحابة، رضوان الله عليهم:

- يا رسول الله، لو قومت لنا؟
- فقال، صلى الله عليه وسلم: الله هو المقوم"

أى هو المسعر لأسعار السلع –.. بينما لا نجد لهذا المصطلح – كما قلنا – مكاناً فى مباحث المعرفة والأخلاق.

****

٢- وإذا نحن خيطا من الموروث الحضارى الإسلامى، نستصحبه إلى مبحث إسلامى فى "القيم الإسلامية" – وخاصة بعد أن غبش الفكر الغربى رؤيتنا.. فلم تعد البدهيات بدهيات؟!.ز ولم تعد المسلمات مسلمات؟!.. وخلت مساحات كبيرة من وعقولنا ومن واقعنا من

تلك الروح الإسلامية التى ظلت سارية فى أنساقنا الفكرية وسلوكياتنا العملية.. بعد وفود هـ.ذا "الغبش الغربى"، الذى زاحم روحنا الإسلامية، منذ قرنين من الزمان.

إذا شئنا خيطًا تراثيا، نستصحبه إلى مبحث إسلامى معاصر فى القيم الإسلامية.. فإن التعريف اللغوى لـ. "القيم"، من الممكن أن يكون هذا هو الخيط..

فالقيم – فى العربية: مصدر.. معناه الاستقامة.. والاستقامة هـ.ى: الاعتـ.دال: وفـ.ى الحديث النبوى.. يقول الرسول ﷺ: "قل: آمنت بالله، ثم استقم" [1]– اعتدل..

والاعتدال – فى اصطلاح العربية – وهى لسان الإسلام – وهو العدل.. وفى القـ.رآن الكريم ﴿ **وكَان بين ذَلك قَواماً** ﴾ [2]– أى عدلا–.. ﴿ **إن هذَا الْقُرآن يهدِى لِلَّتِى هِى أَقْوم**﴾[3] أى عدل. فالقيم: هى الاستقامة.. أى الاعتدال.. أى العدل..

والعدل – فى المصطلح الإسلامى – هو الوسطية – بمعناها الإسلامى – وفى الحديث الشريف، يقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "الوسط: العدل. جعلناكم أمة وسطًا" [4].

فمبحث القيم الإسلامية هو مبحث الوسطية الإسلامية.

والوسطية الإسلامية هى المزاج والروح المميز للإسلام عن غير الإسلامى.. وهـ.ى زاوية الرؤية الإسلامية، التى جعلت وتجعل لهذه الأمة، ولحضاراتها، المتميزة بالوسـ.طية – شهودا على الأمم الأخرى ﴿ **وكَذَلك جعلْنَاكُم أُمةً وسطاً لِتَكُونُوا شُهداء علَى النَّاسِ ويكُـ.ون الرسولُ علَيكُم شَهِيداً** ﴾ [5].

****

٣– بقيت الإشارة الخاتمة فى هذه الإشارات الثلاث...

إشارة لتميز الوسطية فى المصطلح الإسلامى.. وأمثال نضربها على هذا التميز لمعناه الإسلامى عن معانيها فى الأنساق الفكرية غير الإسلامية.

فالوسطية الإسلامية، لا علاقة لها بذلك المعنى السوقى الـ.شائع لـ.دى العامـ.ة عـ.ن الوسطية: انعدام اللون والطعم والرائحة.. وإمساك العصا من منتصفها.. والميوعة التى تفقـ.د الفكر والسلوك كل حزم وتميز وتأثير!.

---

(1) رواه مسلم والإمام أحمد.

(2) سورة الفرقان : الآية ٦٧.

(3)سورة الإسراء: الآية ٩

(4) رواه الإمام أحمد.

(5) سورة البقرة : الآية ١٤٣

والوسطية الإسلامية، مغايرة كذلك للمعنى الأرسطى لهذا المصطلح: النقطة الرياضية الثابتة بين نقيضين.. والمغايرة لهذين النقيضين..

ذلك أن الوسطية الإسلامية.. وسطية جامعة..

نعم.. هى موقف ثالث، مميز عن النقيضين اللذين تتوسطهما.. لكنها لا تغايرهما تمام المغايرة، وإنما هى تجمع وتؤلف منهما عناصر الحق، التى يمكن الجمع بينها والتأليف لها.. فهى ثمرة لهما.. وليست مغايرة لكل مكوناتهما.. وهى حصيلة جدل حى معهما.. وليست نقيضا كاملاً لكليهما..

- فمن القيم الثابت والخالدة فى المعرفة الإسلامية: الوسطية الإسلامية فى نظرية المعرفة.. تلك التى أقامت وتقيم المعرفة على دعامتى كتاب الوحى – المقروء وكتاب الكون – المنظور..
- ومن القيم الثابتة والخالدة فى المعرفة السلامية : الوسطية الاسلامية فى "العقلانية " .. تلك التى تقرأ " النقل " " والعقل " .. وتحكم " بالنقل " .. وتزكى تطبيقات هذه المعرفة العقلانية بروح " الوجدان " ..
- ومن القيم الثابتة والخالدة فى الإنسان والإنسانية: الوسطية الإسلامية الجامعة بين وحدة أصل الإنسان ﴿ **خَلَقَكُم مِن نَفْسٍ واحِدةٍ** ﴾ [1].. وبين تنوع وتعدد الشعوب والقبائل والأقوام والشرائع والحضارات.. ﴿ **ومِن آياتِه خَلْقُ السمواتِ والأَرضِ واخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُم وأَلْوانِكُم** ﴾ [2] ﴿ **يا أَيها النَّاس إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِن ذَكَرٍ وأُنثَى وجعلْنَاكُم شُعوباً وقَبائِلَ لِتَعارفُوا إِن أَكْرمكُم عِنْد اللَّه أَتْقَاكُم إِن اللَّه علِيم خَبِير**﴾[3].
- ومن القيم الثابتة والخالدة فى موقع الإنسان بالكون، وعلاقته بالأغيار من المخلوقات: الوسطية الإسلامية الجامعة بين سيادته فى الأرض وبين عبوديته لله.. فهو سيد فى الكون، وليس سيد الكون.. وإنما هو خليفة عن سيد الكون.. وبعبارة الإمام محمد عبده.. فالإنسان "عبد الله وحده، وسيد لكل شيء بعده"!.. فهى الوسطية الجامعة.. لا "الزفانا" – الهندية – التى تهمش الإنسان عندما تراه: الحقير الفاني.. ولا المادية الغربية التى ألهته عندما أنسنت الإله، وعندما ألهت الإنسان!..

---

(1) سورة الأعراف : الآية ١٩٩.

(2) سورة الروم: الآية ٢٢

(3) سورة الحجرات: الآية ١٣

- ومن القيم الثابتة والخالدة فى الحرية: الوسطية الإسلامية الجامعة بين حرية الإنسان، فيم اهو مقدور له، وبين تفويضه فيما وراء الأسباب المقدورة له.. بين حرية إرادته وبين البواعث المكونة والمزية لإرادته، والخارج عن قدرته.
- ومن القيم الثابتة والخالدة فى العدالة: الوسطية الإسلامية الشاملة لكل ميادين العدل – السياسة.. الاجتماعية والاقتصادية.. والجامعة بالتكافل بين الفرد، والطبقة، والأمة.. على النحو الذى يجمع الأعضاء فى الجسد الحى الواحد.. فلا تميز الأعضاء يعنى الظلم أو الإهمال لأى منها.. ولا تكافلها ووحدتها ومساواتها يعنى إلغاء التمايز الطبيعى والمشروع بينها.
- ومن القيام الثابتة الخالدة فى علاقة الإنسان بالغير – علاقة الموطنية بالقومية بالجامعة الإسلامية بالدائرة الإنسانية – علاقة الحضارات ببعضها – والأمم والدول بغيرها – الوسطية بين الجامعة بين الوحدة فيما هو مشترك إنسانى عام وعالمى، وبين التميز فيما هو خصوصيات قومية وحضارية وعقدية وثقافية.
- ومن القيم الثابتة الخالدة فى علاقة المسلمين بأعدائهم: الوسطية الإسلامية الجامعة بين رفض الظلم للأعداء ورفض الظلم من الأعداء!.. ﴿**يا أَيها الَّذين آمنُوا كُونُوا قَوامين لِلَّه شُهداء بِالْقسطِ ولا يجرِمنَّكُم شَنَآن قَومٍ علَى أَلاَّ تَعدلُوا اعدلُوا هو أَقْرب لِلتَّقْوى واتَّقُوا اللَّه إِن اللَّه خَبير بِما تَعملُون**﴾ [1]. ﴿**لا ينْهاكُم اللَّه عن الَّذين لَم يقَاتلُوكُم فِى الدينِ ولَم يخْرِجوكُم مِن دِياركُم أَن تَبروهم وتُقْسطُوا إِلَيهِم إِن اللَّه يحب الْمقْسطِين (٨) إِنَّما ينْهاكُم اللَّه عن الَّذين قَاتَلُوكُم فِى الدينِ وأَخْرجوكُم مِن دِياركُم وظَاهروا علَى إِخْراجِكُم أَن تَولَّوهم ومن يتَولَّهم فَأُولَئك هم الظَّالمون**﴾ [2].
- ومن القيم الإسلامية الثابتة والخالدة، فى كل مناحى الحياة الإنسانية – فى المعرفة.. وفى السلك.. وفى الأشياء –: الوسطية الإسلامية الجامعة، التى تقيم وتحقق التوازن – العدل – بين الدين والدنيا.. بين الدنيا والآخرة.. بين الحاكم المحكوم بين الإنسان والطبيعة.. بين الأمة والدولة.. بين الحق والقوة.. بين المادة والروح – بين الوحى الإلهى الإبداع الإنسانى.. فالله الذى أنزل "الكتاب" هو الذى أنزل "الحكمة" – وهى الإصابة فى غير النبوة –.. وهو الذى أنزل "الميزان".. ﴿**وأَنزلَ اللَّه علَيك الْكتَاب والْحكْمةَ وعلَّمك ما لَم تَكُن تَعلَم وكَان فَضلُ اللَّه علَيك**

---

(1) سورة المائدة : الآية ٨

(2) سورة الممتحنة : الآيتان ٨، ٩

عظِيماً (١١٣) ﴾ [١] **﴿ وأَنْزلْنَا معهم الْكِتَاب والْمِيزان لِيقُوم النَّاس بِالْقِـسطِ﴾**[٢] **﴿ وأَلْقَينَا فِيها رواسِي وأَنْبتْنَا فِيها مِن كُلِّ شَيءٍ موزونٍ ﴾** [٣].

****

فالوسطية الإسلامية الجامعة هى باب القيم الإسلامية الثابتة الخالدة فى أى ميدان مـن ميادين الفكر.. والسلوك.. والإبداع وهى زاوية الرؤية للمعيار الذى يحدد إسلامية القيم.. وهى المداخل إلى مبحث إسلامى معاصر فى القيم.. أحسبه ضروريا لنا وللآخرين، الـذين اختـل توازنهم – بالإفراط أو التفريط – وفرضوا علينا هذا الخلل، ضمن ما فرضوه!..

تلك إشارات، لعلها أن تكون "مقدمة – وحافزا" لتفضيل الحديث فى هذا المبحث، الذى هو واحد من أهم مباحث النهضة الإسلامية المنشودة، فى هذا العصر الذى نعيش فيه..

---

(1) سورة النساء : الآية ١١٣

(2) سورة الحديد: الآية ٢٥

(3) سورة الحجر : الآية ١٩.